

المشرقُ الرقيّة



مجلة إلكترونية تصدر مرتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثالث. كانون الأول ٢٠١٣

الكتابة

ريمون حرفوش*

التقى قارئٌ نهمٌ كاتبًا ألمعيًا فدار بينهما الحديث التالي:

– سأل النهمُ الألمعيَّ: ما الكتابة؟

– قال الألمعيُّ: وما تظنُّ بها؟

– النهمُ: أظنُّ أنّها موهبةٌ يخلُقها الخالقُ في المخلوق.

– أردف الألمعيُّ قائلًا: لا. ليست هي كذلك. ولئن كان في الكتابة بعضٌ قليلٌ من موهبة، لكنّها ليست موهبةً صِرْفًا. فالموهبة تتجلّى في الصغر وتأخذ طريقها لتتجسّد في مراحلٍ أخرى من العمر، واضحةً جليّةً فارضةً نفسها. فالرّسام الفنّان لا تظهر عبقريته أو يتفكّق إبداعه شابًا أو كهلاً إن لم يحمل الريشة يافعًا فتفتّح مخيلته على الخلق والابتكار، ومقاربة المشهد لونا وبعداً وإسقاط ظلال. والأمر سيّان عند النحات الموهوب، أو الموسيقيّ المحلّق، أو المطرب الذائع الصيت، إذ لا تثمر أشجارُ فنونهم ومواهبهم إن لم تكن بذورها قد بزغت

* سكرتير تحرير المشرق.

في أرض طفولتهم واليفاعه. فكم من كاتبٍ عُرفَ واشتهرَ ولم يكن في طفولته صديقًا للقلم، والعكس جائزٌ وصحيح!

– إسترِك القارئ ليقول: إذا هي حرفةٌ أو صنعةٌ يأخذها الولدُ من أبيه، أو بالأحرى يعلمها الأبُّ ابنه.

– أجاب الكاتبُ قائلًا: لا. ليست هي حرفةٌ أو صنعةٌ إطلاقًا. ولا يمكن أن تكون هكذا. فكم من كاتبٍ طبقت شهرته الآفاق، ولم يقدر على أن ينقل الكتابة إلى أبنائه أو أن يحببهم إليها! فضلًا هو معروفًا وبارزًا وصاحب قلم سيال، وظلَّ أبناؤه أو بنائه في ميادين أخرى علمية أو ثقافية أو مهنية أو غيرها. وكم من كاتبٍ عُرفَ وبرزَ ولم يكن أبوه أو أحد أفراد عائلته يجيدون الكتابة أو يمارسونها! ولئن كانت المهنة والحرف تنطبق على كلِّ نشاطٍ يدويٍّ أو جسديٍّ أو نظريٍّ، وحتى ذهنيٍّ أو عقليٍّ في بعض جوانبه، إلا أنها لا تنطبق على نشاطٍ فيه من المخيلة حيزٌ واسع، ومن الفكر وإعمال العقل حصّة لا بأس بها، ومن اللغة وعبريتها مقدارٌ مهما ازداد يظلُّ ناقصًا، ومن الذوق والإحساس واللباقة والدقّة مقاديرٌ توزن بموازين الذهب.

– عندها قال القارئ: يعني إذا أنّ الكتابة اختصاصٌ يُدرّس أو يُعلّم إن لم تكن موهبةً أو حرفة.

– سارع الكاتبُ إلى القول: لا. ليست هي اختصاصًا إطلاقًا، كالاختصاصات العلمية أو الأدبية وغيرها التي تُدرّس في المعاهد والجامعات. ولئن كان في عددٍ من الاختصاصات الأدبية والإعلامية والسياسية والفلسفية موادٌ وأنشطةٌ تساعد الطالب على تدوَّق الكتابة أو التمرُّس بها، إلا أنها تبقى عصيةً على أن يمتلكها الفردُ من جرّاء اختصاصٍ جامعيٍّ أو مادّةٍ من موادِّ التحصيل. فكم من طالبٍ درس الآداب والإعلام أو الفلسفة أو اللغات وفنون الترجمة، ولم يبرع في الكتابة أو يمارسها، وقد هجرها إلى غيرها مرغمًا أو بإرادته! وكم من كاتبٍ ملأ الصحف والمجلات بحبره والكلمات، وشغل الناس والسياسيين والمتفقين، ولم يدخل جامعةً أو يتخصّص بعلمٍ أو بفنٍّ من الفنون الأدبية هذه! لا. ليست الكتابة فعلٌ تحصيليٍّ أو تجميعيٍّ أو تخزين معلوماتٍ وفنونٍ

وطرائق، بل إنَّها أبعدُ من ذلك وأصعب. إنَّها فعلٌ خلقٍ وابتكارٍ وتحليلٍ واستنتاجٍ يغلِّفه ذوقٌ وترتيبٌ وتنظيمٌ.

– فما كان من القارئِ إلا أن قال: وما عساها إذاً أن تكون؟

– قال الكاتبُ: إسمع يا بنيَّ جيِّداً. إنَّ الكتابةَ هي:

أ – **إحساسٌ وشعورٌ**؛ يحركُ الداخلُ والمشاعرُ فيتحرَّكُ العقلُ مُستلماً القلم. إن لم يشعرِ الحبيبُ بحبِّه الحبيبةَ لا تولدُ القصيدةُ أو المقطوعةُ الأدبيَّةُ؛ وإن لم يشعرِ الصحافيُّ بمعاناةَ مواطنيه ومآسيهم لا تولدُ المقالةُ التي تحركُ القراءَ وتهزِّهم؛ وإن لم يشعرِ المناضلُ أو السياسيُّ بأحقِّيةَ قضيتِهِ وعدالتها وشرعيَّتها لا يولدُ الخطابُ الجماهيريُّ الذي يلهبُ الشعبَ ويجعله ثائراً من أجلِ القضيةِ^١؛ وإن لم يشعرِ الباحثُ أو العالمُ بأنَّ عنده فكرةً أو فرضيةً أو اكتشافاً جديداً لم يسبقه أحدٌ عليه، وهو يستحقُّ الدرسَ والبحثَ، لا تولدُ الدراسةُ أو الأطروحةُ التي يصرفُ على إعدادها اللياليَ والسنوات. فاللائحةُ تطولُ والشواهدُ تتعدَّدُ، ويكفي أن أسْتشهدَ ببعض ما قاله المطرانُ خضر في هذا الموضوع^٢.

ب – **جرأةٌ وشجاعةٌ**؛ أن تشعرَ بأنَّ ثمةَ قولاً أو كلاماً عندك يستحقُّ الكتابةَ أو فعلَ القولِ من دون أن تتجرأَ على قوله أو البوحَ به والمجاهرةَ، فأنتَ خطيبٌ أبكم، أو كاتبٌ مكسور القلم. فالجرأةُ في هذا المقامِ أساسٌ وحافزٌ على التعبيرِ والكشفِ. فكم من صحافيٍّ ألمعيٍّ، وخطيبٍ مفوِّه، وسياسيٍّ جماهيريٍّ مناضل، قضى واستشهد في سبيلِ قضيةٍ آمنَ بها، وكانت جرأتهُ وشجاعتهُ خشبةً نعشه! إذ ليس إحساسُهُ أو شعوره وحده بضرورة القول ما قاده إلى الاستشهاد، بل بالأحرى جرأتهُ والشجاعةُ. وكم من مثقِّفين وكتَّاب وصحافيين يشعرون

^١ النهار، ٢٠١٣/١٠/١٢، مقالة لهنري زغيب بعنوان «مكافأة شخصية أم خدمة للإنسانية»، ص ٨: «ترك تشرشل في السياسة بصمة أدبية عالية بحيث نال جائزة نوبل سنة ١٩٥٣ على كتاباته التاريخية وخطبه السياسية العالية القيمة الأدبية في الدفاع عن القيم الإنسانية».

^٢ النهار، ٢٠١٣/١٠/١٢، مقالة للمطران جورج خضر بعنوان «لماذا أكتب؟»، ص (١، ١٢): «... الحياة بوخٌ بعد إحساس. الكاتب الحق لا يكتفي بنقل ما يشعر به. البوح عنده مكان الالتقاء بين ما عنده وما يحسبه قائماً في الآخرين. الحقيقة هي ما بينك وبين الغير. هي الجامع بين الملقى والمتلقى».

بواجب التعبير أو كشف ما يروونه ضروريًا وجوهريًا في قضيةٍ معيّنة، ويحجمون لتقصٍ في الشجاعة أو لمقدارٍ من الجرأة ما زال ناقصًا في دواخلهم! وما ينطبق على الكتابة في هذا الخصوص ينطبق أيضًا على القول والتعبير في وسائل الإعلام أو في الأروقة والمجالس المغلقة.

وفي الأمثال: «لسانك حصانك، إن صننَّه صانك، وإن خننَّه خانك».

«المرء في أصغرَّيه: قلبه ولسانه»

وفي الشعر:

«الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحلُّ الثاني».

ج - ممارسة وإدمان؛ أن تكتبَ يومًا وتُحجم مئة، فأنتَ لستَ بعدُ كاتبًا؛ أن تكتبَ في موضوع وتُشجِّح عن موضوعات أخرى متفرقة فأنتَ لستَ بعدُ متورطًا في مهنة القلم. فالكاتبُ المدمن يقول في كلِّ مسألة يرى أنَّ له فيها ما يستحقُّ القول أو الإضاءة أو كشف جوانب لم يكشفها سواه، أو النظر إلى المسألة من زوايا أخرى خدمةً للحقيقة وللرأي وللقراء. وكما الرياضي يدمن على الرياضة، إذ يجد فيها راحته والإفادة؛ والصيد يدمن على الصيد، إذ يجد فيه متعته وهوايته المتقنة؛ والموسيقي يدمن على الموسيقى تأليفًا وتلحينًا بحيث يسرح في عالمها ويحلِّق في أجوائها؛ هكذا الكاتبُ المدمن يصبحُ صديق القلم، في ليله والنهار، في راحته والتعب، في هدوئه وفي ثورة غضبه؛ يعالج موضوعاته، يقلِّبها، يرى إليها من جوانب مختلفة، يحملها وجوهًا، يصرِّح حينًا ويلمِّح أحيانًا، يزيد من قوَّة عباراته مرَّةً ويخفِّف ملطَّفًا مرارًا، وكلَّ ذلك بحسب المقام.

- قاطع القارئ عندها الكاتبُ ليقول: إن كان في التبغ مادَّة كيميائية تقود المدخَّن إلى الإدمان، وإن كان في الكحول مادَّة أخرى تأخذ بالمحتسي إلى الإدمان أيضًا، فأبى مادَّة تكمن في الكتابة كي تجعل الكاتب مدمنًا عليها، ويرى نفسه في تبعيَّة نفسيَّة أو فيزيولوجيَّة لها؟

– فردّ الكاتبُ قائلاً: أن يكونَ في الكتابة أثرٌ أو مادّة تترك تبعيَّةً فيزيولوجيَّة على الكاتب، فهذا لعمرى أمرٌ لا أعرفه ولستُ من أهل الاختصاص به. أمَّا كيف يصبح الكاتبُ مدمناً على الكتابة فهذا أمرٌ سهلٌ ومعروف. ألم تقرأ يوماً هذه العبارة: «أنفع ما في القراءة أنَّها تحثُّنا على الكتابة»؟

«في البدء كان الكلمة». هل كانت منطوقَةً ومسموعَةً، أم مكتوبَةً ومقروءة؟ بالطبع كانت الكلمةُ منطوقَةً ومسموعَةً؛ فالله خلق الإنسانَ ناطقًا، والإنسانُ بدوره خلقَ أدوات الكتابة ووسائلها. ومهما يكن، ففعل التعبير واحد، أمَّا وسائل التعبير وأدواته فمتعدّدة، وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.